تأسيس القاعدة الإيمانية

د/ مجدي الهالي

البحث موجود ضمن كتاب نظرات في التربية الإيمانية

ما المقصود بالقاعدة الإيمانية ؟

بناء القاعدة الإيمانية يعني تمكين الإيمان بالله عز وجل في المشاعر المختلفة ، ليُصبح المرء رقيق القلب ، سريع الاستثارة عند تعرُّضه لأدنى مؤثر ، فينعكس ذلك على طريقة تعامله مع أحداث الحياة بتقلباتها المختلفة .

والمقصود بتمكين وبناء الإيمان في المشاعر المختلفة هو بناء الثقة في الله عز وجل ، وفي أسمائه وصفاته ، وفي اليوم الآخر ، وبقية أركان الإيمان .

هذه الثقة والطمأنينة عليها أن تكون لها اليد الطولى في المشاعر المختلفة .

فإن تساءلت : وكيف يُمكن للإيمان أن يصل إلى هذه الدرجة ؟!

قد يُجيب البعض عن هذا التساؤل إجابة نظرية ؛ فيطرح أعمالًا ووسائل من شأنها – في نظره – أن تصل بالمرء لهذا المستوى الإيماني ، فمن قائل : بأن علينا الإكثار من صيام النفل وقيام الليل ومكابدة ذلك وتحمله سنوات وسنوات ، ومن قائل بالإكثار من الأوراد والأذكار والتسابيح ، إلا أن هذه الإجابة تختلف عن إجابة البعض الآخر الذي يتبنى – من الناحية النظرية القيام بأعمال أخرى كالإكثار من الأعمال الاجتماعية ذات النفع المتعدِّي للآخرين ..

.. مما لا شك فيه أن كل هذه الأعمال الصالحة وغيرها لها وظيفة عظيمة في زيادة الإيمان شريطة أن تُؤدى بإحسان – كما أسلفنا – ، لكننا هنا نتحدث عن القاعدة الإيمانية باتساعها في القلب ، والتي تسبق الأعمال الصالحة في الترتيب في الأهمية .

إن طريقة بناء تلك القاعدة في المشاعر المختلفة يحتاج إلى نوعية خاصة من الأعمال التي تُخاطب العقل وتقنعه بكل ما ينبغي الإيمان به ، وتستثير في الوقت ذاته المشاعر حتى تتحول القناعة العقلية إلى حالة إيمانية يعيشها القلب .. على أن تستمر هذه المخاطبة حتى تتحول تلك الحالة إلى إيمان مستقر في القلب ، وليس ذلك فحسب بل ينبغي أن يتناول ذلك جميع المشاعر المختلفة التي تظهر ثمار الإيمان في كل الأحوال والتقلبات الحياتية التي يتعرض لها المرء .

تعرفهم بسيماهم :

لكي نتفق على الطريقة الصحيحة لتأسيس القاعدة الإيمانية علينا أن نبحث في التاريخ عن نموذج حقيقي من البشر ظهرت عليه آثار وثمار الإيمان المتنوعة والشاملة والتي تُعَدّ بمثابة مرآة تعكس وجود تلك القاعدة في القلب ، فإن وجدناه علينا أن نتحرى عن الأسباب التي أدَّت إلى تكوينها بإذن الله .

والباحث المنصف في تاريخ الأمة لن يجد إلَّا جيلًا واحدًا ظهرت عليه تلك الثمار الشاملة ألا وهو جيل الصحابة ، ولعل ما قيل في الفصل الثاني (ثمار الإيمان) ما يؤكد هذا الأمر .

ليبقى السؤال عن سبب وصولهم إلى هذا المستوى الإيماني السامق حتى نحذو حذوهم ، وبخاصة أنهم كانوا قبل إسلامهم في ذيل الأمم ، وكانوا يغرقون في ظلمات الجاهلية ، وكان حالهم أسوأ بكثير من حالنا الآن .. كانوا يعبدون الحجارة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويئدون البنات ، ويأكل القوي منهم الضعيف ..

فكيف حدث لهم هذا التحول العجيب ؟!

كيف استطاعوا أن يصلوا إلى هذا المستوى الإيماني الفذّ ؟

فإن قلت : قد يكون وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم هو السبب في ذلك . أجبتك أنه ما من شك في أن وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين الصحابة كان له دور كبير في استقامتهم ، فهو المعلم والمربِّي ، ولكن لو كان الأمر يقف عند هذا الحد لأصبح من المستحيل الوصول إلى هذه الدرجة الإيمانية أو الاقتراب منها في ظل غياب شخص الرسول صلى الله عليه وسلم .

.. هذه واحدة ، والأخرى أنه صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إلى المدينة وجد مستويات إيمانية عالية من أُناس لم يسبق له أن رآهم أو تعامل معهم من قبل ، فبعد بيعة العقبة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمير لأهل يثرب – الذين كانوا على شركهم – ليدعوهم إلى الإسلام ، وقد كان ، وانشرحت الصدور للدين الجديد ، وامتلأت القلوب بالإيمان من قبل مجيء المهاجرين إليهم ومن بعدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويكفي للاستدلال على قوة إيمانهم ما فعلوه مع المهاجرين من إيثار عجيب مع شدة فقرهم ، والذي تم الحديث عنه في مقدمة الكتاب ، وذكرته الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] .

والعجيب أن الكثير من شعائر الإسلام لم تكن فُرِضت في هذه المرحلة حتى نقول بأن التزامهم بالعبادات والأعمال الصالحة كان السبب في هذا الإيمان الفذ ..

فكيف وصلوا لهذا المستوى ؟!

ماذا فعل معهم مُصعب بن عمير ؟!

كل ما في الأمر أن مصعبًا عندما ذهب إلى يثرب كان معه ما نزل من القرآن ، أو بعبارة أخرى كانت معه المعجزة التي نزلت من السماء والتي من شأنها أن تُحدث زلزالًا رهيبًا في القلوب فلا تستقر بعده على حالها السابق ، بل تكون في حالة من الانبهار الشديد ، والاستسلام لرب هذه المعجزة .

لقد كان مصعب يُدرك أن معه معجزة عظيمة له آثار مزلزلة على من يتعرض لها ، لذلك كان إذا أراد أن يدعو أحدًا إلى الإسلام ؛ يقرأ عليه آيات من القرآن ، فيحدث له الزلزال ومن ثَمَّ التسليم والإذعان الفوري ، لدرجة أن أهل يثرب أطلقوا عليه لقب : « المقرئ » ، ولك – أخي القارئ – أن تتأكد من هذا الأمر إذا ما قرأت قصة إسلام أُسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ .

فأُسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ كانا من سيدي (الأوس) ، وقد ضاقا ذرعًا بالدعوة الجديدة التي يحمل لوائها مصعب بن عمير ، فعزما على إخراجه من يثرب بعد أن تزايد عدد من أسلم من أهلها على يديه ، وذات مره كان مصعب في بستان من بساتين بني (عبد الأشهل) يدعو الناس إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، فإذا بأُسيد يأخذ حربته ويتوجه نحو البستان ، فلما رآه أسعد بن زرارة مقبلًا قال لمصعب : ويحك يا مصعب ، هذا سيد قومه وأرجحهم عقلًا :أسيد بن حضير ، فإن يُسلم يتبعه في إسلامه خلقٌ كثير ، فاصدق الله فيه ..

وقف أسيد بن حضير على الجمع ، والتفت إلى مصعب وصاحبه أسعد ، وقال : ما جاء بكما إلى ديارنا ، وأغراكما بضعفائنا ؟! اعتزلا هذا الحي إن كانت لكما بنفسيكما حاجة .

فالتفت مصعب إلى أسيد قائلًا : يا سيد قومه ، هل لك في خير من ذلك ؟

قال : وما هو ؟

قال : تجلس إلينا ، وتسمع منَّا ، فإن رضيت ما قلناه قبِلته ، وإن لم ترضه تحولنا عنكم ولم نعد إليكم .

فقال أسيد : لقد أنصفت ، وركز رمحه في الأرض وجلس ، فأقبل عليه مصعب فكلمه عن الإسلام ، وقرأ عليه شيئًا من آيات القرآن ، فانبسطت أساريره ، وأشرق وجهه ، وقال : ما أحسن هذا الذي تقول ، ما أحلَّ ذلك الذي تتلو !! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في الإسلام ؟

قال مصعب : تغتسل وتطهر ثيابك ، وتشهد أن إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتصلي ركعتين ففعل ، ثم قال : إن ورائي رجلًا إن تبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه ، وسأرشده إليكما الآن – سعد بن معاذ – ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد في قومه . فقال سعد : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم .

.. ثم ذهب سعد إلى مصعب فحدث له ما حدث لأسيد .. حدث له الزلزال فأسلم واستسلم لله ، وخرج مسرعًا إلى قومه يقول لهم : إن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله [1] .

الجيل الرباني :

من هنا نقول بأن القرآن الكريم هو الوسيلة العظيمة والمتفردة التي قامت بتغيير الصحابة .. ويؤكد فريد الأنصاري على هذا المعنى فيقول : إن القرآن الكريم كان هو الباب المفتوح والمباشر الذي ولجه الصحابة الكرام إلى ملكوت الله ، حيث صُنعوا على عين الله .. إنه السبب الوثيق الذي تعلقت به قلوبهم ، فأوصلهم إلى مقام التوحيد [2] أو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « كتاب الله ، هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض » [3] .

.. (لقد توثَّق ارتباط الصحابة بالقرآن في العهد النبوي ، ارتباطًا عمَّق صلة القلوب بربها ، إلى درجة أنهم كانوا يتتبعون الوحي تتبع الملهوف الحريص على الترقِّي في مدارج المعرفة بالله والسلوك إليه سبحانه ، فهذا عمر بن الخطاب عندما كان مكلفًا ، وصاحبًا له بالمرابطة في ثغر من ثغور المدينة ، ترقُّبًا لغزو مُتوقَّع من ملك غسان) [4] كان يتناوب النزول مع صاحبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لمعرفة خبر الوحي ، فيقول في ذلك :

كان لي جار من الأنصار ؛ فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فينزل يومًا ، وأنزل يومًا ، فيأتيني بخبر الوحي وغيره ، وآتيه بمثل ذلك ، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيول لتغزونا [5]

لقد كان القرآن هو المنبع الأول والمنهج المؤثر الذي قام بتربية الصحابة ، ورفعهم إلى أعلى الآفاق بعد أن كانوا في أسفل السفوح ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم بوظيفة المعلم والمربي الذي يتعاهد فعل القرآن فيهم ، ويُعمق معانيه في نفوسهم ، ويشرح لهم ما أُشكل فهمه عليهم .. كان صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله ، والمربي والقدوة العملية لتمام وكمال العبودية لله عز وجل ..

---

(1) سيرة ابن هشام (207/2) ، والرحيق المختوم للمباركفوري (163 ، 164) .

(2) التوحيد والوساطة في العمل الدعوي د. فريد الأنصاري ص 46 .

(3) أخرجه الطبري (31/4) .

(4) التوحيد والوساطة في العمل الدعوي د. فريد الأنصاري ص 42 .

(5) متفق عليه ، أخرجه البخاري (46/1 برقم 89 ، 1991/5 برقم 4895) ، ومسلم (192/4 برقم 3768) .

إنهم صُنِعوا ها هنا :

عندما تحدثنا – بفضل الله – في الفصل الثاني عن ثمار الإيمان ؛كانت الأمثلة من جيل الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كانوا جيلًا من الربانيين العابدين الزاهدين المجاهدين المتواضعين ، ليكونوا بمثابة أعظم وأصدق شهادة لقوة تأثير القرآن ، وأكبر دليل إثبات لقدرته – بإذن الله – على إعادة صياغة وتشكيل الإنسان على النحو الذي يُحبه الله ويرضاه مهما كان انحرافه وضلاله ..

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب رحمه الله :

لقد كنت وأنا أُراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله – سبحانه – وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم ، فلا أكاد أُدرك كيف تم هذا ؟!

كنت أُدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ، ولكني لم أكن أُدرك كيف تم هذا حتى عُدت إلى القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل : تجلية حقيقة الألوهية وتعبيد الناس لها وحدها بعد أن يعرفوها .

.. وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله !

أدركت – ولا أقول أحطت – سر الصنعة عرفت أين صُنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صُنع !

إنهم صُنعوا هاهنا ! صُنعوا بهذا القرآن ! بهذا المنهج المُتجلي فيه ! بهذه الحقيقة المتجلية في هذا المنهج ! حيث تُحيط هذه الحقيقة بكل شيء ، وتغمر كل شيء ، ويصدر عنها كل شيء ، ويتصل بها كل شيء ، ويتكيف بها كل شيء .. بهذا كله وجدت – في الأرض وفي دنيا الناس – حقيقة « الربانية » متمثلة في أُناس من البشر .

وُجد « الربانيون » الموصولون بالله ، العائشون بالله ، ولله ، الذين ليس في قلوبهم ، وليس في حياتهم إلا الله ..

وحينما وُجدت حقيقة « الربانية » هذه في دنيا الناس ، ووُجد الربانيون الذين هم الترجمة الحقيقية لهذه الحقيقة .. حينئذ انساحت الحواجز الأرضية ، والمقررات الأرضية ، والمألوفات الأرضية ، ودبَّت هذه الحقيقة على الأرض ، وصنع الله ما صنع في الأرض وفي حياة الناس بتلك الحفنة من العباد .. وبطلت الحواجز التي اعتاد الناس أن يروها تقف في وجه الجهد البشري وتَحُدُّ مداه ، وبطلت المألوفات التي يقيس بها الناس الأحداث والأشياء .. ووُجد الواقع الإسلامي الجديد ، ووُلد معه الإنسان الحقيقي الجديد [1] .

من هنا نُدرك كيف كان حزن الصحابة على انقطاع الوحي ، وليس أدل على ذلك مما رواه أنس رضي الله عنه عندما قال :

---

(1) مقومات التصور الإسلامي لسيد قطب ، ص 192 ، 193 باختصار ، دار الشروق – مصر .

قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر : « انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها.. فلما انتهينا إليها ، بكت ، فقالا لها : ما يُبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم. فقالت : ما أبكى أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء! فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها »[1].

تأثر الصحابة بالقرآن :

ذاق الصحابة رضوان الله عليهم حلاوة الإيمان من خلال القرآن ، وأدركوا قيمته ، فأقبلوا عليه وانشغلوا به ، وانجذبت مشاعرهم نحوه لدرجة الاستغراق والهيمنة :

فهذا عمر بن الخطاب يسمع رجلًا يقرأ : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (7) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ [الطور : 7 ، 8] ، فجعل يبكي حتى اشتد بكاؤه ، فقيل له في ذلك ، فقال : دعوني ، إني قد سمعت قَسَمَ حقٍ من ربي[2].

وكان عبد الله بن عباس يُقرئ عبد الرحمن بن عوف في خلافة عمر بن الخطاب .. قال عبد الله بن عباس : لم أر أحدًا يجد من القشعريرة ما يجد عبد الرحمن عند القراءة [3] .

وفي يوم من الأيام قال بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تر ثابت بن قيس بن الشماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح ؟!

قال : « فلعله قرأ بسورة البقرة » ، فسُئل ثابت فقال : قرأت سورة البقرة [4] .

نزل رجل من العرب على عامر بن ربيعة، فأكرم عامر مثواه، وكلم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء الرجل إليه بعد ذلك، فقال: إني استقطعت رسول الله صلى الله عليه وسلم واديًا ما في العرب أفضل منه، ولقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك.

فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا [اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ] [الأنبياء: 1] [5].

---

(1) أخرجه مسلم (144/7 برقم 6472) .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء .

(3) الانتصار للقرآن للباقلاني (201/1) ، ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (145).

(4) فضائل القرآن لأبي عبيد ص 66، وابن كثير في فضائل القرآن ، وقال: إسناده جيد.

(5) تفسير ابن كثير (332/5) ، والدر المنثور للسيوطي (615/5) ، وروح المعاني للألوسي (2/17) .

المصدر المتفرد :

إذن فالقرآن الكريم هو المصدر المتفرد والوسيلة العظيمة التي صنعت الجيل الأول ، ومن ثَمَّ فهو المؤهل للقيام بهذه الوظيفة معنا إن أحسنَّا التعامل معه .

.. هذا من ناحية الواقع العملي ، أما من ناحية الشروط التي تم الحديث عنها في الصفحات السابقة والخاصة ببناء القاعدة الإيمانية ، فإن جميعها متحقق في القرآن وزيادة وزيادة ، وكيف لا والذي أنزله هو رب العالمين ، العالم باحتياجاتهم .. الذي يُريد لهم الخير والقرب الدائم منه ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الفرقان : 6] .

إن طريقة القرآن في زيادة الإيمان ، وبناء قاعدته في جميع المشاعر طريقة فريدة لا يُمكن للعقل البشري القاصر أن يُحيط بها ، ويكفيك في ذلك أن تتعرف على تأثير آيات القرآن عندما تُتلى على من يُحسن استقبالها ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (108) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : 107 - 109] .

فهؤلاء الذين أشارت إليهم الآيات عندما سمعوا القرآن خرُّوا إلى الأذقان سُجدًا من تأثيره عليهم .. اندفعوا نحو الأرض بجباههم دون أن يُطلب منهم ذلك .. دفعهم لهذا السجود قوة تأثير الآيات على قلوبهم ، واستثارتها الفائقة لمشاعر الإجلال والتعظيم لله عز وجل ، فلم يملكوا أنفسهم ، ولم يستطيعوا السيطرة على مشاعرهم ، فاندفعوا ساجدين خاشعين باكين ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة : 15] .

وكأن هذا هو الحال الذي ينبغي أن يكون عليه كل من يستمع آيات القرآن ؛ لِما فيها من قوة تأثير جبارة ، لذلك ذم الله عز وجل من لا يؤمن ولايخشع عند سماعه للقرآن ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ [الانشقاق : 20 ، 21] .

فمن لم يتأثر بالقرآن ويزداد به إيمانًا ، فبماذا سيتأثر ويؤمن ؟! ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات : 50] .

المعرفة الشاملة :

القرآن كتاب عظيم به آلاف الآيات التي تتضمن الكثير والكثير من المعلومات عن الله عز وجل ، وعن أسمائه وصفاته ، وآثارها في الكون ، ويحتوي كذلك على كل ما ينبغي أن يؤمن به الإنسان لينجح في مهمته على الأرض .

ولئن كان يصعُب على البعض النظر الصحيح ، والتفكر في الكون وآياته المشهودة فإن القرآن العظيم يختصر له الكون ، بل ويرشده إلى طريقة التفكر فيه ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : 2] ، ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : 3 ، 4] .

والقرآن العظيم كذلك يحتوي – بإجمال – على أهم الأحداث التي مرَّت بالبشرية ليأخذ منها المسلم العبر والعظات التي تُعينه على القيام بواجبه الصحيح على الأرض .

ولك أن تتأمل آيات سورة القمر ، وكيف أنها تذكر العديد من قصص السابقين كقوم نوح وعاد وثمود ، ثم نجد كل قصة منها تنتهي بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] ، أي أنك إن كنت – أيها القارئ – لم تُشاهد ما حدث لهؤلاء ، وفاتك أخذ العبرة منهم ، فإن القرآن يكفيك ، ويُقدم لك خلاصة تلك الأحداث ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : 111] .

ويؤكد سيد قطب على شمول المعرفة القرآنية فيقول :

إن القرآن الكريم وهو يتناول الحقائق والمقومات التي يقوم على أساسها التصور الإسلامي للوجود ، ويُقدم على أساسها التفسير الصحيح لهذا الوجود أيضًا .. لم يدع جانبًا منها يراود الفكر البشري عنه سؤال إلا وقد أجاب على هذا السؤال ، ولم يدع انحرافًا في تصورها يخالط الفكر البشري إلا وصحح هذا الانحراف بحيث يستقيم في القلب والعقل وفي الكينونة البشرية بجملتها تصور كامل من وراء هذا البيان الشامل ، وتفسير صحيح للوجود كله وللتاريخ الإسلامي [1].

المعرفة المؤثرة

.. والقرآن الكريم لا يُقدم المعلومة فقط ، بل يُقدمها بطريقة تُقنع العقل ، وتستثير المشاعر في آن واحد ، فينشأ الإيمان – بإذن الله – .

وإذا ما داوم المرء على قراءة القرآن – قراءة صحيحة – ازداد إيمانًا .. لماذا ؟

لأنه ازداد معرفة نافعة ومؤثرة ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال : 2] .

ويُقارن بديع الزمان النورسي بين المعرفة التي يُقدمها القرآن والمعرفة التي يُقدمها علم الكلام فيقول :

حقًّا ، إن معرفة الله المستنبطة من علم الكلام ليست هي المعرفة الكاملة ، ولا تورث الاطمئنان القلبي.

---

(1) مقومات التصور الإسلامي ص (80).

في حين أن تلك المعرفة متى ما كانت على نهج القرآن الكريم المعجز ، تُصبح معرفة تامة ، وتُسكب الاطمئنان الكامل في القلب .

إن المعرفة المُستقاة من القرآن الكريم تمنح الحضور القلبي الدائم مع الله .

ويضرب النورسي مثالًا للفرق بين الأمرين :

لأجل الحصول على الماء ، هناك من يأتي به بواسطة أنابيب من مكان بعيد يُحفر في أسفل الجبال ، وآخرون يجدون الماء أينما حفروا ، ويُفجِّرونه أينما كانوا .

فالأول سير في طريق وَعر وطويل ، والماء مُعرَّض فيه للانقطاع والشُّحة ، بينما الذين هم أهل لحفر الآبار فإنهم يجدون الماء أينما حلُّو دونما صعوبة ومتاعب .

.. إن كل آية من آيات القرآن الكريم كعصا موسى تُفجِّر الماء أينما ضربت .. [1] .

ويقول : لا حاجة إلى الاستضاءة بنور الشموع مادامت هناك شمس ساطعة [2].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

إن اللذة والفرحة والسرور ، وطيب الوقت ، والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه ، إنما هو في معرفة الله عز وجل ، وتوحيده ، والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف القرآنية [3] ، وكيف لا (والقرآن يُثير العواطف ، ويوقظ العقول في وقت واحد ، وبعد الاقتناع يطمئن العقل ويهدأ الإحساس ، ويشعر الإنسان بنشوة الفرح والارتياح) [4].

القرآن يستثير جميع المشاعر :

الذي يُقبل على القرآن إقبالًا صحيحًا فيتدبر معانيه ويتأثر بها يجد أنه يُخاطب جميع مشاعره ، فتارة يستثير فيه مشاعر الخوف والرهبة ، وتارة الفرح والاستبشار ، وتارة الرضا والتفويض ، وتارة السكينة والطمأنينة ، وتارة الحب والشوق إلى الله عز وجل .

يقول ابن القيم :

---

(1) المكتوبات (425- 426) باختصار وتصرف يسير .

(2) المصدر السابق (463) .

(3) رسائل ابن تيمية في السجن ص (31) .

(4) التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي ص (136) .

لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر ، فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ، ومقامات العارفين ، وهو الذي يورث المحبة والشوق ، والخوف والرجاء ، والإنابة والتوكل ، والرضا والتفويض ، والشكر والصبر ، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله [1].

(يشعر القارئ (المتدبر للقرآن) أنه يعيش حياة نابضة في في عالم آخر غير الذي يعيش ، يُدرك أن روحًا تسري فيه .

.. يحس من يقرأ في القرآن متنقلًا بين آياته وسوره أنه يعيش في قرية صغيرة ، يجمعها مكان واحد ، هي هذه المعمورة رغم اتساعها ، ويكتنفها زمان واحد من لدن آدم حتى قيام الساعة .. نصوص مفتوحة أمامها الطريق ، لا يحُدُّها زمان ، ولا يُقيدها مكان ، تلقي تعاليمها لهذا الإنسان الذي لا تتغير مشاعره وجوانبه النفسية وميوله على اختلاف الزمان .

هكذا يجد كل إنسان فيه بُغيته .. يُقبل عليه المهموم ليجد فيه بلسمه ، ويُقبل عليه المحزون ليجد فيه سلوته ، ويُقبل عليه العالم ليجد فيه طلبته ، ويُقبل عليه الهارب من قيود الحياة الرتيبة ليجد فيه خلوته .. يُقبل عليه الضال التائه الحائر ليجد ضالته .

انظر كيف أن آيات السورة الواحدة تنتقل بك من موضوع إلى آخر ، ومن وصف إلى قصص ، إلى وعد ووعيد ، إلى تشريع ، ... .

.. هذا ، وإن في تنوع سور القرآن طولًا وقصرًا ، انسجامًا مع هذه النفس الإنسانية التي تل الرتابة ، كل سورة من سور القرآن تُضيف لبنة نفسية إلى ذلك الكيان الإنساني ، حتى تجده مع آخر سورة قد اكتمل بناؤه النفسي ، وتكاملت مشاعره وأحاسيسه ..

.. من هنا نُدرك الحكمة من كثرة النصوص الواردة في حثِّ المسلم على الإقبال على هذا القرآن ، وإشارة النصوص إلى ضرورة أن يكون لهذا الإنسان ورد يومي وزاد يتقوَّت به في يومه ، وأهمية قراءة القرآن من أوله إلى آخره لأنها تُمكن المرء من استثارة كامل مشاعره التي تنطوي عليها نفسه) [2].

القرآن وبناء الإيمان :

وإليك أخي القارئ بعض اللمحات اليسيرة عن طريقة القرآن الفريدة في بناء الإيمان :

---

(1) مفتاح دار السعادة (553/1) .

(2) التعبير القرآني والدلالة النفسية للجيوسي ص (224-226) باختصار ، دار الغوثاني – دمشق .

القرآن الكريم يطرح جميع الحقائق التي ينبغي الإيمان بها طرحًا يُخاطب به العقل فيُقنعه بشتى أساليب الإقناع من خلال الحوار الذي يُشعر قارئ القرآن أنه أحد أطرافه ، ويصل معه في النهاية إلى الإجابة المقنعة للقضية المثارة ، وخلال هذا الحوار نجد هناك أسئلة تُطرح وأمثلة تُضرب وإجابات تُفحِم وتُدحِض أي شبهة .

فعلى سبيل المثال :

شبهة أن القرآن ليس من عند الله ، وأن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد افتراه من عنده ، نجد الرد على هذه الشبهة في أكثر من موضع في القرآن بكلام مُفحم وأدلة دامغة كقوله تعالى في سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (13) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود : 13 ، 14] .

.. ومع الإقناع العقلي فإن القرآن يستثير المشاعر في نفس الوقت من خلال أساليبه المتنوعة من تشويق وترغيب وترهيب ، ومن خلال القصة والموعظة ، فعلى سبيل المثال : سورة النبأ تناقش قضية البعث والجزاء ، وتُثبتها من الناحية العقلية ، من خلال حثّ القارئ على الإجابة على أسئلة بدهية مفادها أن الذي جعل لك النوم سُباتًا ، والنهار معاشًا ، وأنزل المطر ، وبسط الأرض ، وثبَّتها بالجبال ، و.. ، هو الذي يُخبرك أن هناك يومًا للجزاء ..

ومع هذا الإقناع العقلي يأتي الترهيب بذكر هول يوم القيامة وبشاعة النار ، وكذلك ذكر الجنة ، وبعض ما فيها من ألوان النعيم ، فتُستثار المشاعر مع تلك القناعة العقلية فينشأ الإيمان بإذن الله .

وليس ذلك فحسب ... فمن أهم الوسائل التي يتفرد بها القرآن لاستثارة المشاعر هي الطريقة التي ينبغي أن يُتلى بها ؛ ألا وهي الترتيل والتغني به طبقًا لأحكام التجويد ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : 4] .

أهمية الترتيل :

إن تحسين الصوت بالقرآن وترتيله له وظيفة عظيمة في الطرق على المشاعر لاستثارتها ، فيؤدي ذلك إلى امتزاج القناعة العقلية بالعواطف المنفعلة ، لذلك كان الحث على تحسين الصوت عند قراءة القرآن .

قال صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » [1].

وقال : « ليس منّا من لم يتغن بالقرآن » [2] .

(1) حديث صحيح : أخرجه أحمد (283/4 ، رقم 18517)، وأبو داود (74/2 ، رقم 1468) ، والنسائي (179/2 ، رقم 1015) ، وابن ماجه (426/1 ، رقم 1342) وغيرهم ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (3574 - 3575) .

(2) أخرجه البخاري (2737/6 ، رقم 7089) .

وقيل لابن أبي مُليكة : « يا أبا محمد ، أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ قال : يحسنه ما استطاع » [1] .

ويؤكد ابن حجر العسقلاني على هذا المعنى فيقول :

والذي يتحصل من الأدلة أن حُسن الصوت بالقرآن مطلوب ، فإن لم يكن حسنًا فليحسنه ما استطاع[2].

ويقول الجيوسي في كتابه « التعبير القرآني والدلالة النفسية » :

القرآن الكريم كتابٌ لا كأي كتاب ، فهو يُتلى بطريقة مرتبة ، على أصول منظمة ، يجب أن تُراعى فيه قواعد القراءة وأصول الأداء ، وهذا مما اختص به القرآن الكريم على سائر الكتب ، وورود الأمر بذلك في الآيات الأولى من مرحلة نزول القرآن ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : 4] .

ولا شك أن هناك قواعد تتصل بالأداء القرآني لابد من مراعاتها كأحكام التجويد ، فالتجويد هو التحسين .

.. هذه الأحكام التي ينبغي لقارئ القرآن أن يُراعيها هي في حقيقة الأمر أحد أسرار ذلك الإيقاع الذي يشدُّ الأسماع إليه ، لا تكاد تخلو آية من حُكم ما بين غُنّة أو مدّ أو إخفاء ، أو غير ذلك من الأحكام التي تفرض على السامع لونًا معينًا لا يعهده في الكلام الاعتيادي ، وإذا ما علمنا أن قراءة القرآن ينبغي أن تكون بالترتيل وبمراعاة هذه الأحكام ، أدركنا أن ذلك سرٌّ كامنٌ في كتاب الله ، هذا الذي يجعل النفس تنجذب إليه [3] .

فإذا ما اقترن ذلك بحضور العقل وتفهُّمه للخطاب كان الأثر عظيمًا على القلب كحال وفد نصارى نجران عندما استمعوا للقرآن ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : 83] .

وجدير بالذكر أن (التغني بالقرآن هو تحسين الصوت بقراءة القرآن ، بخلاف الغناء المعروف في زماننا ، فالقصد من هذا الغناء أن يطرب ويُطرب غيره لا ليتعظ ويعتبر ، فالتغني بالقرآن إذًا هو : **استماع المتكلم لما يُتَكلم به ، مترنمًا بالنطق ، مستحبًّا له ، مستلمحًا مستطيبًا للكلمات ، ذوقًا لها ولمعانيها**) [4] .

ويؤكد الحافظ ابن كثير على هذا المعنى فيقول :

---

(1) أخرجه أبو داود (548/1 برقم 1473) ، وقال الشيخ الألباني رحمه الله : حسن صحيح .

(2) فتح الباري (72/9) .

(3) التعبير القرآني والدلالة النفسية ، لعبد الله الجيوسي ص (164، 165) باختصار وتصرف يسير ، دار الغوثاني – سوريا .

(4) المصدر السابق ص 168 .

والغرض أن المطلوب شرعًا إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه ، والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة ، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان ، والأوضاع الملهية والقانون الموسيقائي ، فالقرآن يُنزَّه عن ذلك [1] .

أهمية المداومة على تلاوة القرآن :

القرآن يُخاطب العقل فيُقنعه ، ويضغط على المشاعر فيستثيرها ، لينشأ بذلك الإيمان – بإذن الله – ، فيُثمر ذلك الإيمان مزيدًا من العبودية لله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : 27 ، 28] .

والقرآن يعرض جميع الحقائق التي ينبغي الإيمان بها ، وعلى رأسها الإيمان بالله عز وجل وبأسمائه وصفاته .

والإيمان الذي يحدثه القرآن يتناول جميع المشاعر ، فإذا ما داوم المرء على تلاوته ، وأعطاه وقتًا معتبرًا من يومه فإن هذا من شأنه أن يزيده إيمانًا ، وهكذا تستمر زيادة الإيمان حتى تستقر وترسخ في المشاعر ، وتكون له اليد الطولى بها ، وباستمرار التلاوة يزداد الترقي الإيماني ، ويزداد ظهور ثمار الإيمان .

من هنا كان الحث في القرآن والسنة على ضرورة المداومة على تلاوة القرآن حتى يتحقق مقصوده العظيم بتحصيل العلم والإيمان والترقي في مدارج السائرين إلى الله .

فمن الآيات قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴾ [فاطر : 29] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ ﴾ [النمل : 91 ، 92] .

وقوله : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ [العنكبوت : 45] .

ومن الأحاديث النبوية ، قوله صلى الله عليه وسلم : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تَفَصِّيًا من قلوب الرجال من الإبل من عُقلها » [1] .

---

(1) فضائل القرآن لابن كثير (114/1) .

وقوله : « اقرؤوا القرآن واعملوا به ، ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستأثروا به»[2].

ولما جاء وفد ثقيف إلى المدينة أنزلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة بين المسجد ، وبين أهله ، فكان يأتيهم ويُحدثهم بعد العشاء ، وفي ليلة من الليالي تأخر عليهم ثم أتاهم ، فقالوا له : يا رسول الله ، لبثت عنَّا الليلة أكثر مما كنت تلبث ، فقال : « نعم ، طرأ عليّ حزبي من القرآن فكرهت أن أخرج من المسجد حتى أقضيه » [3].

ولكي يقع هذا الحث النبوي مواقعه الصحيحة فلا يؤدي إلى إسراع البعض في القراءة دون تفكُّر وتفهُّم وتدبُّر كانت التوجيهات النبوية بضرورة التركيز وجمع العقل مع التلاوة ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول ، فلينصرف فليضطجع » [4] .

وقوله لعبد الله بن عمرو بن العاص وهو يوضح له سبب نهيه عن قراءة القرآن في أقل من ثلاثة أيام : « لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث » [5].

وعندما نزلت آيات سورة آل عمران ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : 190] . قال صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأ هذه الآيات ثم لم يتفكر فيها » [6] .

لا بديل عن القرآن :

من هنا نقول بأننا إذا ما أردنا بناء القاعدة الإيمانية باتساعها في جميع مشاعر القلب فلابد من العودة الصحيحة إلى القرآن ، وإعطائه وقتًا معتبرًا من يومنا ، وأن نُداوم على ذلك كل يوم .. نقرؤه بتدبر وترتيل وصوت حزين ، فإن لم نفعل ذلك فلا نلومن إلا أنفسنا عندما نُفاجأ بعد الموت بهذا الكنز الذي كان بين أيدينا ، فهجرناه بمحض إرادتنا ، وقد كان بإمكاننا من خلال حُسن التعامل معه أن نقترب أكثر وأكثر من الله عز وجل ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام : 104] .

---

(1) أخرجه البخاري (1921/4 ، رقم 4746) ، ومسلم (545/1 ، رقم 791) .

(2) حديث صحيح : أخرجه أحمد (428/3 ، رقم 15568) ، وأبو يعلى (88/3 ، رقم 1518) ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة .

(3) حديث حسن : أخرجه، وأبو داود (55/2 ، رقم 1393) ، وابن ماجه (427/1 ، رقم 1345) ، و أحمد (9/4 ، رقم 16211) حسنه الحافظ العراقي في "تخريج الإحياء" (276/1) والحافظ ابن حجر كما في "الفتوحات" لابن علان (229/3).

(4) أخرجه مسلم (543/1 ، رقم 787) .

(5) حديث صحيح : أخرجه أحمد (104/11 ، برقم 6546) ، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ، حديث رقم (1157) .

(6) حديث صحيح : أخرجه ابن حبان في صحيحه (386/2 ، برقم 620) ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم 68 .

القرآن والسنة :

وغني عن البيان أن الحديث عن القرآن يشمل الحديث عن السنة بالتبعية ، فكما يقول ابن رجب :

فأما السُنة فهي مفسرة للقرآن ، ومُبيِّنة ، وموضحة ، فهي تابعة له ، والمقصود الأعظم هو القرآن [1]..

وليس أدل من أهمية التمسك بالسنة مع القرآن من قوله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين ، لن تضلُّوا بعدهما : كتاب الله ، وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يرِدا على الحوض » [2] .

ابتعاد الأمة عن الانتفاع الحقيقي بالقرآن :

ومما يدعو للأسف أن جيل الصحابة لم يتكرر مرة ثانية في تاريخ الأمة حتى الآن ، ومن أهم الأسباب لذلك هو هجر الانتفاع بالقرآن كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان .

إن مشكلتنا الرئيسة مع القرآن والتي تمنعنا من الانتفاع الحقيقي به هي ضعف إيماننا به ، وثقتنا فيه كمصدر متفرد لتحصيل العلم والإيمان ، ومن ثَمَّ التغيير .. ولك – أخي القارئ – أن تتأكد من هذا التشخيص بإجراء اختبار لنفسك وللآخرين ، بأن تتخيل بأنك يومًا ما رغبت في قراءة شيء من الرقائق والمواعظ لترقيق قلبك ، فاتجهت إلى مكتبتك ، ووقع بصرك على كتاب التوهم للمحاسبي ، والتبصرة لابن الجوزي ، ومدارج السالكين لابن القيم ، وإحياء علوم الدين للغزالي ، ووقع بصرك – فيما وقع – على المصحف ، فأي الكتب ستختار ؟! وما هو ترتيب القرآن في هذا الاختيار ؟!

ستُفاجأ أخي –كما فوجئت – بأن القرآن هو آخر كتاب ستختاره لهذه المهمة .. هذا إن كنت ستضعه في دائرة الاختيار والتفضيل .

إنه أمر يدعو إلى الحسرة .. كتاب الله أعظم وسيلة للتأثير يُصبح مهجورًا بهذه الطريقة ؟!

يا حسرة على العباد :

هل انطفأ نور القرآن ؟

---

(1) الاستغناء بالقرآن في تحصيل العلم والإيمان لابن رجب .

(2) حديث صحيح : أخرجه الحاكم (172/1 ، رقم 319) ، والدارقطني (245/4) ، وصححه الألباني .

لا والله ، فهو كما هو النور المبين ، وسيظل تأثيره أقوى من تأثير أي نور آخر ، ولكننا أدرنا له ظهورنا ، ولم نُحسن توجيه نوره لعقولنا وقلوبنا ، فلم نشعر بأثره ، فهل نقول لأنفسنا : « يا حسرة على العباد ؟! »

يقول معاذ بن جبل رضي الله عنه : سيبلى [1] القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت [2] ، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة [3] .

لقد صدق معاذ رضي الله عنه ، فلقد ضعفت قيمة القرآن في قلوبنا ، وأصبحنا لا نجد اشتهاء للإقبال عليه ، ولا لذة حينما نتلو آياته .

.. لقد تضافرت عوامل كثيرة أدَّت إلى هذا الهجر الخطير للقرآن ، ولكن حيث أنه لا بديل أمامنا سوى العودة إليه والانتفاع به لتحصيل العلم النافع لعقولنا ، والإيمان المتجدد لقلوبنا ، والتزكية الصحيحة لنفوسنا ، والحركة الدائبة لخدمة ديننا ، فلابد من بذل غاية الجهد ، واجتياز كافة العقبات التي تحول بيننا وبينه ..

أخي القارئ

لو أن رجلًا يعمل في مكان بعيد عن أهله ، وعلِم أن ابنه قد مرِض مرضًا عضالًا ، وأنه يحتاج إلى دواء (ما) وصفه له الأطباء ، وأن هذا الدواء غير متوافر ببلد الابن ، فبحث عنه حتى وجده ، ووضعه في صندوق محكم غاية الإحكام ، وبالغ في وضع الأغلفة على الصندوق وأرسله إلى ابنه ، وعندما وصلت العلبة إليه وعلم أن فيها دواءه حاول فتحها هو ومن حوله فلم يستطيعوا ، فماذا تظن أنهم سيفعلون ؟

هل سييأسون من فتحها وينصرفون عنها ، أم سيحاولون فتحها مرات ومرات حتى ينجحوا ؟

لقد أصبح بيننا وبين القرآن حجابًا كثيفًا ، يحول بيننا وبين الانتفاع به ، فلا ينبغي علينا أن نيأس إن أقبلنا على القرآن فلم نجد أي تجاوب ، فالأمر يحتاج إلى محاولات متكررة ، وإلحاح شديد على الله عز وجل ، وتَبؤُّس وانكسار حتى يفتح لنا سبحانه أبواب القرآن ، وتصل أنواره إلى عقولنا وقلوبنا .

يقول المحاسبي :

فإن طلبت الفهم بصدق أقبل عليك بالمعونة ..

---

(1) بلى الثوب : من كثرة استعماله حتى صار قديمًا لا قيمة له .

(2) التهافت : التساقط والتتابع .

(3) أخرجه الدارمي في سننه (531/2 برقم 3346) .

لا يَثقُل فهم كلامه إلا على من تعطل قلبه ألا يسمع ..

فإن علم – سبحانه – من التالي لكتابه صدق ضمير ، وعناية حتى يجمع همه للفهم ، أفهمه .. ألا تسمعه يقول : ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا ﴾ [الأنفال : 70] .

فإذا أقبلت على الله بصدق نية ، ورغبة لفهم كتابه بإجماع همٍّ ، متوكلًا عليه أنه هو الذي يفتح لك الفهم : لم يخيبك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله [1].

ويقول الزركشي :

إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه ، مفتقرًا إلى التفهم ، بدعاء وتضرع ، وابتئاس وتمسكن ، ومنتظرًا للفتح عليه عند الفتاح العليم ، وأن تكون تلاوته على معاني الكلام ؛ فهذا القارئ أحسن الناس صوتًا بالقرآن ، وفي مثله يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : 121] .. وهذا هو الراسخ في العلم [2].

فمن هنا نقول – بيقين – بأننا إن استطعنا أن ندخل على القرآن دخول التلميذ المُتشوق للمعرفة حينما يُقابل أعظم أستاذ ، وداومنا على ذلك ، فإن القرآن سيفتح لنا أبوابه ، وسيغزو نوره قلوبنا ، لنكون من بعد ملاقاته قومًا صالحين بإذن الله ، وأكثر إيمانًا وبهجة وسكينة .

التحدي الكبير :

لا يُمكن للتربية الإيمانية أن تتم بمراحلها المختلفة دون التعامل الصحيح مع القرآن ، وهذا لن يحدث إلا إذا زادت الثقة فيه ، كمصدر متفرد لتنوير العقول والقلوب ، وتزكية النفوس ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن : 8] .

هذا هو التحدي الكبير الذي يواجهنا ..

فالحل بين أيدينا ، ومع ذلك لن نقدر على الانتفاع به طالما ضعف إيماننا به وثقتنا فيه .

.. من هنا نقول أن نقطة البداية في طريق الانتفاع بالقرآن بعد الاستعانة الصادقة والمستمرة بالله عز وجل هي تنمية الثقة فيه لتزداد رغبتنا فيه ، وإقبالنا الصحيح عليه .

وتنمية هذه الثقة تحتاج منّا إلى القيام ببعض الأمور هي :

---

(1) البرهان في علوم القرآن للزركشي .

(2) فهم القرآن للمحاسبي .

أولها : التعرف على أوصاف القرآن من القرآن :

فكلما تعَّف المرء على فاعلية الدواء الذي سيستخدمه ؛كلما ازداد ثقة فيه ، فكما يقول الحارث المحاسبي :

« لقد عظم الله عز وجل القرآن وسمَّاه : برهانًا ، ونورًا ، ورحمة ، وموعظة ، ومجيدًا ، وبصائر وهدى ، وفرقانًا ، وشفاء لما في الصدور ، وذلك ليعظم قدره عند المؤمنين ، فيقبلوا عليه منبهرين ومقِّدرين ، ومتدبرين ، فينالوا به شفاء قلوبهم » .

وأخبرنا أنه أحسن من كل حديث ومن كل قصص وقال نحن نقص عليك أحسن القصص ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : 23] .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : 3] .

وأخبرنا أنه لا يفنى ولا ينفد ﴿ لْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : 109] [1].

ثانيها : التعرف على النماذج القرآنية التي صنعها القرآن على مر العصور :

ولعل أهم قدوة في ذلك : رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم صحابته الكرام الذي قال عنهم الإمام القرافي :

لو لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة إلا أصحابه لكفوه في إثبات نبوته [2].

فعلينا أن نتعرف على علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، وكيفية تعامله معه ، ووصاياه نحوه .

وعلينا كذلك أن نتعرف على أثر القرآن على الصحابة ، وكيفية تناولهم له ، وتوجيهاتهم لمن بعده .

وهناك نماذج قرآنية في العصر الحديث تُعطينا الأمل في إمكانية تكرارها بيننا ، فعلينا أن نتعرف عليها وعلى أثر القرآن فيها .

ومن هذه النماذج : محمد إقبال ، وبديع الزمان النورسي ، وحسن البنا ، وعبد الحميد بن باديس ، وسيد قطب ، وأبو الحسن الندوي ، وأبو الأعلى المودودي ، وفريد الأنصاري .

ثالثها : التعرف على أهم العوائق التي تحول بيننا وبين الانتفاع بالقرآن ، وهي – بإجمال – :

---

(1) فهم القرآن للمحاسبي ص (282) ، دار الكندي .

(2) الفروق للقرافي (4 / 303) .

الصورة الموروثة عنه ، وطول إلف سماعه ، ونسيان الهدف الذي من أجله نزل ، والانشغال بفروع العلم والتبحر فيها ، وغياب أثره في واقع الحياة ، ورسوخ مفاهيم ساهمت في عدم الانتفاع به كالخوف من تدبره ، وأهمية الإسراع في حفظه ، والسعي وراء تحصيل الثواب فقط من تلاوته مما يؤدي إلى الإسراع في تلاوته دون تفهُّم ولا تدبر ، وغير ذلك من المفاهيم والممارسات التي تُشكل حاجزًا نفسيًّا يمنعنا من الانتفاع الحقيقي بالقرآن .

.. وقبل ذلك كله ، فإن كيد الشيطان واجتهاده في الحيلولة بين وصول القرآن للعقل والقلب من أهم عوائق الانتفاع بالقرآن [1].

(1) اقتراح : يُفضَّل – من وجهة نظري - أن نقول : فإن كيد الشيطان واجتهاده في الحيلولة بين وصول القرآن للعقل والقلب - لعلمه بعظم أثره على دينهم ودنياهم وسلوكهم واخلاقهم - من أهم عوائق الانتفاع بالقرآن .

ولعلك تجد – أخي القارئ – بعض التفصيل حول هذه العوائق في كتاب « تحقيق الوصال بين القلب والقرآن » * ، وفيه كذلك العديد من النماذج العملية للأثر الإيجابي للقرآن العظيم ، فاقرأه – إن شئت – على أن تكون قراءة متأنية من بدايته حتى نهايته ، لعل هذه القراءة تُسهم – بإذن الله – في تحقيق الهدف الذي ترمي إليه هذه الصفحات .

التواص والتعاهد :

من أخطر العوائق التي تحول بيننا وبين الممارسة العملية المستمرة لقراءة القرآن وتدبر معانيه والتأثر بها ، هو تعودنا على طريقة شكلية لتلاوته ؛ تلك التي تُركز على قراءة أكبر قدر من آياته دون التفكر في معانيها ، وبخاصة في شهر رمضان ، بحثًا عن الثواب المترتب على قراءتها .

لذلك من المتوقع ان يجد المرء صعوبة بالغة في الانتقال إلى الطريقة الصحيحة في قراءة القرآن ، والتي تُحقق قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص : 29] .

نعم ، قد ينجح يومًا او بضعة أيام ولكنه سرعان ما يعود إلى الطريقة القديمة ..

.. إن الذي تعوَّد أن يأكل بيده اليسرى ثلاثين عامًا يصعب عليه الأكل بيده اليمنى بمجرد أنه قد عرف أهمية ذلك ، فالأمر يحتاج منه إلى عزم أكيد ، وتوكل عظيم على الله عز وجل ، وممارسة طويلة ، ومع ذلك فمن المتوقع أنه سيجد معاناة شديدة حتى يعتاد الأكل باليمنى .

ونفس الأمر بخصوص القرآن ، فلقد اعتدنا قراءته والتعامل معه بشكل غير صحيح ، ولكي يتم تعديل ذلك لابد من استعانة صادقة بالله ، وعزم أكيد ، وممارسة ، ومتابعة ، وتعاهد ممن سبقونا في هذا الأمر حتى نتعود على القراءة اليومية للقرآن ، بتدبر وترتيل وصوت حزين ، وتفاعل مع الآيات التي نتأثر بها .

وسائل عملية للانتفاع بالقرآن :

* بفضل الله ، الكتاب موجود على موقع الإيمان أولًا .

ولتمام الفائدة نضع بين يديك أخي القارئ بعض الوسائل العملية التي من شأنها أن تُدخلنا – بإذن الله – إلى عالم القرآن ، وتفتح لنا أبواب الانتفاع به ، فعلينا أن نستخدمها عند تلاوتنا اليومية للقرآن ، وأن تسير جنبًا إلى جنب مع وسائل تنمية الثقة في القرآن والتي ذُكرت آنفًا .

أولًا : قبل أن نبدأ بقراءة القرآن علينا بالإلحاح على الله عز وجل أن يفتح قلوبنا لأنوار كتابه ، وأن يكرمنا ويعيننا على التدبر والتأثر ، ولنتذكر جميعًا بأن الإلحاح الشديد على الله هو أهم مفتاح يفتح القلوب للقرآن ، فليكن – إذن – إلحاح ودعاء وتضرع كتضرع المضطر الذي يخرج دعاؤه من أعماق قلبه .

يقول ابن رجب: على قدر الحُرقة والفاقة تكون إجابة الدعاء[43].

ثانيًا : القراءة في مكان هادئ ، بعيدًا عن الضوضاء حتى يتسنَّى جمع العقل والقلب ومع القرآن ، وكذلك اختيار الوقت المناسب الذي يكون فيه المرء بعيدًا عن الإجهاد البدني أو الذهني ، ولا ننسى الوضوء والسواك .

ثالثًا : تخصيص وقت معتبر للقراءة لا يقل في البداية عما يُقارب الساعة المتصلة وحبذا لو كان أكثر من ذلك ، مع مراعاة ضرورة – عدم قطع القراءة بأي أمر من الأمور ما أمكن ذلك – حتى لا نخرج من جو القرآن ، وسلطان الاستعاذة .

رابعًا : القراءة من المصحف وبصوت مسموع وبترتيل ، على أن تكون القراءة هادئة حزينة لاستجلاب التأثر بإذن الله .

خامسًا : الفهم الإجمالي للآيات من خلال إعمال العقل في تفهُّم الخطاب ، وهذا يستلزم منَّا التركيز التام مع القراءة .

وليس معنى إعمال العقل في تفهم الخطاب أن نقف عند كل كلمة ونتكلف في معرفة معناها وما وراءها ، بل يكفي المعنى الإجمالي الذي تدل عليه الآية حتى يتسنَّى لنا الاسترسال في القراءة ، ومن ثَمَّ التصاعد التدريجي لحركة المشاعر فتصل إلى التأثر والانفعال في أسرع وقت * .

سادسًا : الاجتهاد في التعامل مع القرآن كأنه أُنزل عليك وكأنك المخاطَب به ، والتفاعل مع هذا الخطاب من خلال الرد على الأسئلة التي تطرحها الآيات ، والتأمين عند مواضع الدعاء ، والاستغفار في مواضع طلب الاستغفار ... وهكذا .

سابعًا : تكرار وترديد الآية أو الآيات التي يحدث معها تجاوب وتأثر مشاعري حتى يتسنى للقلب الاستزادة من النور الذي يدخل عن طريقها ، والإيمان الذي ينشأ في هذه اللحظات .

---

(43) الذل والانكسار لابن رجب .

* يُفضَّل القراءة في مثل مصحف التجويد الذي يوجد على هامشه معاني الألفاظ الغريبة عن فهم القارئ حتى يتسنَّى له معرفة معناها وقت القراءة ، دون الحاجة لقطع القراءة والبحث عنها .

ويستمر ترديد الآية أو الآيات حتى يزول التأثر والانفعال .

ثامنًا : إعادة قراءة الآيات التي يشرد عنها العقل ، ويتركها ويسبح في أودية الدنيا ، وفي نفس الوقت لا نعيد قراءة الآيات التي لم نتأثر بها ، لأن التأثر حالة قلبية لا نملك استدعاءها ، وهي في الغالب تأتي — بإذن الله — بعد الاسترسال في القراءة بترتيل وصوت حزين وفهم إجمالي ، والله الموفق .

ملاحظة :

في حالة تولد الرغبة لمعرفة تفسير بعض الآيات المقروءة أو أسباب النزول ، فمن الأفضل الرجوع للتفسير بعد إنتهاء القراءة حتى لا نخرج من جو القرآن والانفعالات الوجدانية التي نعيش في رحابها .

وأخيرًا : علينا ألَّا نيأس إن تأخر تجاوب القلب مع القرآن ، فلا بديل عنه في تحقيق أهداف التربية الإيمانية ، ولا حل أمامنا سوى الاستمرار في قراءته —كل يوم — بترتيل وتدبر وصوت حزين حتى ياتي الفتح من الفتاح العليم .